العدد 2509 - السنة التاسعة
الإثنين 29 رمضان 1437 - الموافق 4 يوليو 2016
Monday 4 July 2016 - No.2509 - 9th Year
إعداد : محمود عبدالراضي

يزيد وزن كل واحدة منها على أطنان عدة

هياكل «دولمن» الحجرية..إرث تاريخي يعود لخمسة آلاف عام قبل الميلاد

غرف حفرت تحت مستوى الأرضية

قبور الدولمن

تمتد على الهضاب الشرقية المطلة على غور الاردن هياكل حجرية ذات شكل صندوقي تعرف بـ(دولمن) يجمع أكثر الخبراء على انها إرث تاريخي يعود الى نحو خمسة الاف عام قبل الميلاد.

وتـرّن بـلاطات (دولـمن) أو (دولمُن) الحجرية نحو الطن وتقف منصوبة بشكل عمودي تغطيها من الأعـلـى بلاطة حجرية مشابهة ما يكسبها شكل «الصندوق».

واستـخـدمت هـذه الهياكل الحجرية كمقابر في بداية العصر البرونزي المبكر بدلالة هيكلية البناء الذي يتميز بالاستطالة والمدخل الضيق والحيز الذي يسع شخصا في وضع الاستلقاء.

وتم رصد مواقع لـ(دولمُن) بأعداد كبيرة بالقرب من وادي الأردن وأبرزها في حقل (داميا) و(كفريوبا) و(جبل المطوق) و(الكورة) ووادي (حسبان) و(سحاب) و(ناعور) و(قنية) كما تنتشر في عدد من البلدان حول العالم لا سيما في المنطقة العربية وبريطانيا وايرلندا وإسبانيا.(

تعني كلمة «دولـمن» القديمة الطاولة الحجرية، وهي تتألف من أربع كتل حجرية منصوبة، بشكل عمودي تغطيها من الأعلى كتلة حجرية ضخمة، وأحيانا توجد في هـذا الشكل الأثـري الصخري فتحة ضيقة عند أحد طرفيه للولوج من خلالها لداخل «الدولمن».

ومن الصعب حمل أو نقل هذه الكتل الصخرية الأثرية التي يزيد وزن كل واحدة منها على أطنان عدة، مما يتطلب تعاون مجموعة كبيرة من الأشخاص لإقامة مثل هذه المعالم الأثرية.

ويعرف «الدولمن» ايضا ببيت الغول؛ حيث يعتقد بأن العمالقة فقط هم القادرون على بنائه، لكن الدلائل تشير الى أن «الدولمن» استعمل كغرفة للدفن اذا احتوت بعض النماذج على غرف حفرت تحت مستوى الأرضية وخصصت لدفن الموتى، كما عثر في نماذج اخرى من الدولمن في حقل داميا الأثري على جثث محروقة وكانت تدفن مع الميت بعض أغراضه الخاصة كـالأواني الفخارية والأسلحة والحلي والبعض كان يغطى الدولمن بكومة من الحجارة إخفاء للميت.

وتـوجـد المئـات مـن حقول «الدولـمن» في الأردن، وأهمها يتركز في مناطق داميا وديرعلا والـروضـة والـديمة والشونة الجنوبية، وتتألف هذه الحقول عادة من مجموعات صخرية يزيد عدد كل واحدة منها على مائة نصب.

وادي الأردن إرث حضاري وتاريخي

وتشكل منطقة وادي الأردن إرثا حضاريا وتاريخيا اردنيا للاقوام والأمم التي سكنته منذ اكثر من عشرة آلاف عام حتى اصبح مهوى افئدة الرحالة والباحثين والمؤرخين منذ القرن الميلادي الأول.

وقد عكست المكتشفات الأثرية في العديد من المواقع التي شملها المسح بعدا تاريخيا وحضاريا بالغ الأهمية، جعلها على جانب واسع من الشهرة العالمية لما القته من ضوء على تاريخ الإنسانية القديم.

ومن أهم المواقع الأثرية في وادي الأردن –تل السعيدية، وتل المزار، وتل داميا، وتل دير علا، وتل الأربعين، وتل أبو حامد، وتليلات الغسول، وباب الذراع، وتل الدولات، وتل الكفرين، وتل الرامة، والزارة، وموقع مغطس السيد المسيح عليه السلام.

وحقل داميا الأثري، يحتوي على حقول حجرية وأنصاب تعرف باسم «الدولمُن»؛ حيث تنتشر هذه الأنصاب فوق الجبال الصخرية الوعرة بكثافة، مما يميزها عن باقي حقول «الدولمُن» المعروفة في العالم.

ويعد حقل داميا أحد أهم هذه المواقع في الأغوار، والتي يزيد عددها على مائتي موقع تاريخي وأثري ترجع لعصور مختلفة تمتد من العصر الحجري وحتى العصور الإسلامية المتأخرة.

بناء الدولمُن

ويـتـردد لـدى المؤرخـين والباحثين سؤال عمن بنى هذه الدولمُن، حتى أصبح موضوع اغلب التخمينات التي كانت متوقفة على محاولات مساواة الدولمُن بالناس والأماكن والمقرات المقدسة المتعلقة بالكتاب المقدس.

وبحسب رأي العالم رايت (Right)، فإن الدولمُن كانت مراكز الاعتقاد بالعمالقة، أما عن عادات الدفن في العصر البرونزي فإن نظام الدفن الذي عثر عليه خلال الحفريات يدل على تقاليد جديدة تختلف عن العصر السابق له، وبحكمه معتقد جنائزي مميز، من حيث مكوناته المتمثلة بالكهوف والتي استعملت مقابر جماعية لا تبعد كثيرا عن المستوطنات البشرية، كما أنشئت كهوف من تحت الإنسان حفرت من أجل الدفن أيضا، إضافة الى أن الإنسان اختار كهوفا طبيعية وأدخل عليها تعديلات بأن زاد من سعتها من أجل أن تكون ملائمة لعملية الدفن، كما عثر في المقابر الجماعية على عظام للموتى وأدوات جنائزية ومرفقات خاصة كانت توحي بأن أولئك الناس كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى بعد الموت.

كما استخدمت مقابر الأنفاق عن طريق فتحة رأسية من سطح الأرض تؤدي الى حجرة كروية تتصل بالنفق من خلال فتحة جانبية أحكم إغلاقها بوضع حجر مستدير ليغلقها إغلاقا تاما بعد وضع الميت فيها.

ويـأتـي الاهـتـمـام بالدولمُن من ظهورها في مناطق مختلفة من العالم كإيرلندا وبريطانيا وإسبانيا وإيران، الا أنها تنتشر بشكل أكبر في الأردن وفي ثلاثة حقول هي: داميا والقطين والمطابي، وقد عثر في داميا على 641 دولمُن، و61 دولمُن في المطابي، و6 دولمُن في القطين.

وحـددت المدونات التاريخية العـالمـيـة حقل داميـا الأثـري والمقدرة مساحته بحوالي 600 دونم، وعثر حتى الآن على 200 دولمُن في الحقل تعود للعصر البرونزي المبكر، أي ما يعادل 2300 سنة قبل الميلاد.

أعمال المسح الأثري لهذا الحقل وغيره تالي ضمن خطة تطوير أخدود وادي الأردن سياحيا، وهي منطقة غير مطورة حاليا وتخلو من الخدمات كافة بما في ذلك الطرق. كما أنها غائبة عن قائمة الترويج السياحي ومهددة بخطر مناجم التعدين في المنطقة الأثرية، والتي منحت تراخيص استثمارية من قبل سلطة وادي الأردن، كون هذه الأراضي هي ضمن اختصاصها.

ومن الصعب تحديد تاريخ إقامة هذه المعالم والنصب الحجرية، لأنه أعيد استعمالها عبر القرون الماضية، ولكن يغلب الاحتمال بأن عمرها يبلغ حدود خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وكل هذه المعالم تعد نماذج للأبنية التي أقيمت من كتل حجرية ضخمة، وهي لم تستعمل للدفن فقط بل كانت ايضا مرتبطة بطقوس عبادة ويوجد مثلها في أوروبا وجزر البحر المتوسط والمحيط الهادي.

وتشير بعض الدلائل الى قدوم جماعات وقبائل الى منطقة الأردن وفلسطين ووادي الأردن، خاصة من الشمال في فترة العصر البرونزي المبكر له ارتباط بهذه المدافن؛ حيث جاءت هذه الأقوام بعادات وطقوس دفن جديدة مرافقة لتقاليدهم الحضارية.

وتشير الحفريات الى احتمالية وجود أنصاب ودولمُن أكثر من ذلك، الا أن النشاط الإنساني في العهد القريب أسهم في اختفاء العديد منها والذي تمثل بمنح شركات تعدين تراخيص في منطقة الدولمُن، والتي أثرت على معظم الأنصاب والمظاهر الحجرية التي غيرت معالمها.

أما المؤشر الآخر الذي أخفى بعض المظاهر الأثرية فهو عبث العابثين والباحثين عن الدفائن والكنوز؛ حيث وجدت حفر واسعة وتجريفات عميقة بآليات ثقيلة في حقل داميا، أدت الى تدمير العديد من هذه الموروثات الحضارية النادرة.

وبعد حقل داميا من أهم حقول الدولمُن في المنطقة، كونه يضم عددا كبيرا من الأنصاب الحجرية المتكاملة، والتي تنتشر على سفوح وقمم الجبال الصخرية المحاذية لقناة الملك عبدالله، الا أن هذا الحقل الأثري تعرض في العقود الأخيرة لتأثيرات بشرية أهمها استغلال صخر الحقل لأغراض التعدين، واستخدام حجر البناء وأعمال البحث عن الدفائن والكنوز والتأثيرات البيئية والمناخية؛ حيث تتراكم الأتربة والحجارة فوق المظاهر الأثرية، وحولها بسبب جريان السيول وعوامل التعرية.

أما التنقيبات التي أجريت في داميا فهي مهمة حول تاريخ هذه الأنصاب وطبيعة بنائها واستخداماتها؛ حيث أكدت الحفريات أن هذه الأنصاب تحوي تحتها غرفا سرية تمثل نموذجا مصغرا للأنصاب الحجرية الظاهرة على السطح، وأن الخزف الذي وجد في غرفة قدر تاريخها بالعصر البرونزي الأول EBI، وبما أن هذا الفخار وجد في غرفة الدفن فهذا دليل على مدى ارتباطه بها وأنه موجود أصلا في الوقت الذي بنيت فيه غرفة الدفن.

أربع كتل حجرية منصوبة

كتلة حجرية ضخمة

نشأتها وتاريخها

وحول تاريخ بنائها وغيابها، أكدت الدراسات التي أجريت على مواقع الدولمُن لمعرفة تاريخها وفترة بنائها، أنها جاءت عن طريق الآراء التي طرحها الكثير من العلماء من خلال الدراسات الأثرية والميدانية، فقد نسبها العالم نيوفايل Neuville الى اربعة آلاف عام قبل الميلاد، وارجعها العالم انانل AÑatl الى الألف الخامس قبل الميلاد، في حين نسبها ديفيوكس Devuex الى العصر الحجري (المبكر والحديث)، ونسبها الدكتور خير ياسين الى بداية العصور البرونزية؛ حيث أشار بعض الباحثين والمؤرخين والعلماء إلى أن هذه الأنصاب الحجرية استخدمت كمدافن في العصرين البرونزي والحديدي.

وعثر في موقع القطين على 61 نصبا كشفت الحفريات على موجودات بداخلها تعود الى فترة العصرين الحديدي والبرونزي، وهذا يدل على أن الأنصاب تم بناؤها في فترة العصر البرونزي المبكر وأعيد استخدامها في العصر الحديدي، كمدافن جماعية وهذا دليل على وجود محرقة لجثث الموتى في ذلك العصر.

ويوجد في مرتفعات الجولان السورية المحتلة 32 دولمُن من انواع وابعاد متعددة، تم حفرها في حقول مختلفة اغلب هذه الأنصاب بنيت في فترة ما بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط.

واستنتج العالم ابستين Epstein انها بنيت قبل نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد، وأن قبائل من الشرق والجنوب الشرقي كانت تتحرك عبر المرتفعات ثم تتجه نحو الغرب وتستقر في هذه المناطق لتوفر مقومات الحياة فيها من مياه وأراض زراعية.

أما الاكتشافات التي تمت في باب الظهرة، فقد أضافت دليلا داعما للاستنتاج انه في فترة العصر البرونزي الأول EBI كانت هناك مجموعة من الناس في معبر الأردن لهم قبور ومدافن مميزة، مما يدل على رفاه الحالة الاجتماعية والدينية لهؤلاء الناس.

أما الفخار الذي عثر عليه في المدافن، فهو عبارة عن أوعية عميقة بحواف منحنية وأباريق بمقابض وأوعية بمقبض مخروطي الشكل؛ حيث إن الجسم البارز الوحيد هو حافة الوعاء الذي يتميز بلمعانه ذي اللون الرمادي وهو المثال الوحيد الذي عثر عليه في الموقع.

كما أظهرت الحفريات مقتنيات أثرية أخرى في الموقع كالكهوف ذات الأشكال المختلفة، فمنها ما هو صغير لا يتجاوز عمقه بضعة سنتميرات، ومنها ما هو أكبر وأعمق من ذلك؛ حيث عثر عليها منحوتة داخل الواجهات الصخرية التي تتكون منها بعض أطراف الجبال في حقل داميا.

وقد أشارت الدراسات الى أن هذه الكهوف كانت على الأرجح تستخدم لأغراض الجنائزية كون العديد منها لا يزيد عمقه على مترين، وقد انتشرت في مساحة الحقل كاملا، ولكن كثر تركيزها في الجزء الشمالي منه.

كما تم العثور على جدران ودوائـر مبنية من الحجارة الصخرية، وأهم المظاهر الأثرية هو البرج الدائري الذي يتكون من مداميك حجرية عدة مبنية في الحجر الكلسي غير المشذب؛ حيث بني فوق ربوة مشرفة على مساحة واسعة من الحقل. وقد أشار المؤرخون والرحالة الى أن هذا الطراز من البناء يمثل المعاني المهمة ذات الصلة بالطقوس الروحية والجنائزية للعصر البرونزي.

أما الفخار الذي عثر عليه في الحقل، فقد تعرض للكسر بفعل الاعتداء البشري على هذا الموروث الحضاري، الا أن قطع الفخار التي عثر عليها تدل على أنها استخدمت في العصر البرونزي وأعيد استخدامها في العصور اللاحقة.

وقد عثر على كسر فخارية ترجع للعصر الروماني وسط رجم حجري يخالف في طبيعة بناء الأنصاب الحجرية– الدولمُن؛ حيث تؤكد المشاهد الظاهرية أنه كان بناء أو أبنية عدة ذات صيغة استيطانية أو عسكرية؛ اذ تم العثور على خطوط من الجدران الحجرية يزيد طولها على ثلاثة أمتار.

الا أن يد الزمن والبشر وغياب الاهتمام بالموقع طمست معالم هذه الموروثات الحضارية النادرة التي تزيد من مكانة الأردن السياحية والحضارية.–(وزارة السياحة والآثار)

شرف